تقديم مخطوط كتاب في صلحاء وادي شلف لموسى بن عيسى المازوني

عبيد بوداود*

ينسب هذا المخطوط الذي توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك 2343 إلى موسى بن عيسى المازوني. وإننا نتوفر على نسخة منه مصورة عبر الميكروفيلم، والتي على ضوئها نحاول التقديم له.

إن المعلومات المتوفرة بشأن صاحب المخطوط زهيدة جدا، فهي لا تتعدى بضعة أسطر، وردت في عدد من المصادر منها التعريف التالي: "قاضي مازونة وصفه بعضهم بالفقيه الأجل المدرس المحقق الأكمل، وهو والد صاحب النوازل[1]، ولصاحب الترجمة تأليف في الوثائق سماه الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق في مجلد..."[2].

واستطرد صاحب تعريف الخلف برجال السلف في ترجمته قائلا: "أبو عمران موسى بن عيسى المازوني عالم جليل وعامل أصيل، تمكن في سنة حتى لم يدع للبدعة مدخلا إلا سده ولا لأهلها مقتلا إلا قده، فهو في الدين طود شامخ ذو مجد باذخ على أولياء الله مناضل وفي سبيل الذب عن حماهم مقاتل. وقفت له على تأليف عظيم القدر كبير الفائدة، لخصه من كتاب له في مناقبهم سماه: ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار. واقتصر في ملخصه على مناقب المشيخة المشتهرة بالصلاح في أوطان الشلف...وذكر فيه علما كثيرا نافعا يغسل أدران القلوب، ويعذب إطلاعه لكل معتقد أديب..."[3].

إننا لم نستطع أن نقف عند العنوان الحقيقي لهذا المخطوط الذي نريد التقديم له، لأن الورقتين الأوليتين مطموستين تماما، والمخطوط يبدأ بوضوح من الورقة 3 ظ حيث تتضمن عبارة: "بما كنت قيدته في مناقب الصالحين وما وصلوا إليه من سني المقامات".

ويبدو أن هذا المخطوط هو اختصار لمؤلفه الذي ذكره الحفناوي سابقا. ويتضح أن موسى بن عيسى أراد بهذا المؤلف اختصار كتاب ديباجة الافتخار الذي هو أكبر جرما منه، حينما طلب منه صديق له نسخة من ذلك الكتاب، حيث يذكر: "والسبب الباعث على ذلك فبنشره لسماع ذلك وللوقوف على ما قيدته من ذلك، ورغب إلي بحق الصحبة أن أوجه له الأصل فتعذر علي بعثه ووعدته أن أضع له شيئا من فضائل شيخنا وسيدنا الشيخ الولي أبي البيان واضح[4] وطرقا لما تحصل لدي من مناقب غيره من صلحاء شلف المشهورين بالبركات وإجابة الدعوات، وما أيدهم الله به من الكرمات. وأدمجت له عند تقييده له هذا مواعظ ذكية وأشعار معنوية ترفق

*- أستاذ مكلف بالدروس، معهد التاريخ، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي - معسكر.

القلوب وتذري الدموع. وجلبت له شيئا من العجائب المأثورة عن القوم، وبعض أسرار أهل التصوف وأحاديث نبوية ومجاهدة القوم نفوسهم وكيفية أحوالهم تفيد بمجموعها رغبة في صحبة الفضلاء ونشاطا لزيارة الصلحاء والإخوان وحرصا في حضور مجالسهم برؤيتهم والتشبث بخدمتهم بعد أن صدرت هذا بمقدمة جليلة يستدل بها على ثبوت كرامة الصالحين والرد على من كره من الزائغين..."[5].

ولحسن الحظ، فإن خاتمة الكتاب المخطوط غير مبتورة وإلا ما كان لنا أن نتأكد من هوية المخطوط، ففي الخاتمة ثمة إشارة صريحة لنسب هذا الكتاب لموسى بن عيسى المازوني، وكذلك لموضوع الكتاب: "وهذا آخر ما قصدنا إليه من مناقب المشيخة الشلفية وبه أيضا رجال فضلاء لكنهم دون مقام هؤلاء مع ما عرف من فضله وحسن شيمه أعرضت عن ذكرهم اكتفاء بأولئك وإن لم يرتقوا في الشهرة والظهور مبلغ الطبقة...كمل جميع الديوان المبارك تأليف الشيخ الإمام العالم القدوة الصدر الأوحد سيدي موسى بن عيسى المازوني رحمه الله تعالى ورضي عنه"[6].

أما اسم الناسخ وتاريخ النسخ فهما مذكوران بوضوح: "...على يد كاتبه الفقير إلى ربه أحوج الورى إلى عتق وأظمأهم إلى مورد رضاه وصفوه محمد بن أبي القاسم بن محمد بن حميميد بن المغزي الشريف الحسني الجزائري المسيلي بتونس المانوسية بالشهيدة المحروسة آخر شهر ربيع الأول الشريف بمولده صلى الله عليه وسلم سنة 1082 من هجرته عليه الصلاة والسلام..."[7].

ابتداء من الورقة الثالثة من المخطوط، بدأ ترتيبه بالصفحات بدل الأوراق، حيث وضعت أرقامه على يسار كل صفحة وبلغ عدد صفحاته 319 صفحة من الحجم المتوسط، ولقد وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التعامل مع هذا الترقيم بدل استخدام الأوراق كما هو الشأن في المخطوطات. مسطرة هذا المخطوط 17 سطرا. وإذا ما استثنينا الورقتين الأولى والثانية، وبعض الفراغات القليلة، فإن بقية المخطوط واضح الخط، وكتب بخط مغربي رائق بلون أسود، مع تلوين أسماء المترجم لهم باللون الأحمر، هذا ما اطلعنا عليه في أصل المخطوط قبل تصويره على الميكروفيلم.

يدخل تأليف هذا الكتاب ضمن كتب المناقب، هذا النوع من التأليف الذي انتشر في مختلف البلاد الإسلامية، ومن بينها المغرب الإسلامي، فهو يذكرنا بكتاب التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات التادلي، وكتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق الباديسي، وكتاب أنس الفقير وعز العقير لابن قنفذ القسنطيني.

اقتصر فيه صاحبه على التعريف بصلحاء وادي شلف، وسوف نذكر أسماء هؤلاء المترجم له لاحقا. وجاءت خطة الكتاب على النحو التالي: الدفاع عن كرامات الأولياء وشرعيتها من خلال ثبوت حدوثها لكبار الصحابة والتابعين والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ذلك، والرد على معترضي كرامات

الأولياء، وهو يوضح في خطابه عبارة "يا أخي" واستغرق منه ذلك الصفحات الواحدة والخمسين الأولى، ثم يباشر بعد ذلك الترجمة للأولياء.

ويبدأ بأبي البيان واضح، حيث يورد في ترجمته: "كان الشيخ سيدي أبو البيان فيما حدث عنه الثقات قاهرا لأحواله مجتهدا في العبادة دائم التوجه إلى الله قامعا لشهوته خرج في ميدانها نهايته عن كل هذه المألوفات لاسيما ما جرى عليه ملك أحد فكان يقتات ببقول الفحوص ومباحث الأرض، لم يكن رحمه الله عالما وإنما كان أميا كشيبان الراعي عاملا صواما قواما حتى نضب لحمه ورق عظمه وضعفت قواه من كثرة الوصال..."[8].

ثم بعد ذلك يورد عدد من كراماته، ويطنب في ذلك. ويذكر انتقاد السلطان الزياني أبي يحيى يغمراسن بن زيان إلى مغارة الشيخ وما دار بينهما من حديث[9]، وعلاقته بمحمد بن عبد القوي ملك توجين. ثم يختم بذكر وفاته: "وبحثت على تاريخ مولد الشيخ واضح أو عام وفاته فلم أجد علم ذلك عند أحد، وكذلك ذكر حفيده أبو محمد في قصيدته إلا أنه توفي عن تحقيق في أواخر القرن السابع..."[10].

ولقد استغرقت ترجمة الشيخ من الصفحة 51 إلى الصفحة 116، ويبدو أنه ركز عليه أكثر من غيره لكبير وقع هذا الولي في نفسه، لكن تخللت الترجمة الكثير من الاستطرادات، فالمؤلف يبدو أنه كان واسع الثقافة، ولم يكن يتقيد بالموضوع أو الشخص الذي يترجم له، فنجده أكثر من مرة يتعرض إلى قضايا عديدة في غالبها ذات علاقة بالتصوف والكرامات ومسألة القطبانية والخلوة، وكان في كل مرة يعود فيها إلى الموضوع بعد صفحات من الانقطاع موظفا عبارة "ومن مناقب الشيخ».

ثم بعد ذلك ترجم للولي أبي يعقوب بن أبي عبد الله بن محمد بن محيو الهواري، ما بين صفحتي 117-208 ومما جاء في ترجمته: "كان رضي الله عنه جليل المقدار عالما صالحا زاهدا تؤثر عنه غرائب وعجائب. قال لي شيخنا أبو زكرياء قرأ بالبلاد المشرقية زمانا طويلا حتى تفقه وأنه لما رجع ألقى بموضعه خمسمائة دينار ذهبا ميراثا فتصدق بجميعها على الضعفاء والمساكين والفقراء والأيتام وذوي الحاجات..."[11]. ثم يأتي على ذكر كراماته ومناقبه.

وتتضمن ترجمته معلومة تاريخية في غاية الأهمية تتعلق ببني غانية، كما يذكر كتاب له بعنوان "حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه»يقول بشأنه: "وعقدنا فيه فصلا جيدا تضمن فوائد تنبسط خواطر طالبي هذه الطريقة وتزيدهم رغبة فيما هم بسبيله، فيه الوصية بتعظيم الفقراء وبعض ما ورد في فضلهم والتحذير من احتقارهم والترغيب في حضور مجالسهم، وترك الأنفة من مجالستهم وفضل النفقة عليهم والوجه الجائز في اجتماعهم للذكر والدعاء، وما يكره من ذلك، وفضل زيارة المشائخ والإخوان في الله"[12].

ويذكر أن قبر هذا الولي ببني حلوان بساحل مازونة مشهور متبرك يفزع لحماه في أوقات النهب والفساد وشن الغارات على أهل هذه البلاد.

وبعد ذلك يترجم للشيخ أبي زكريا المغيلي ما بين صفحتي 209-249 ومما تضمنته ترجمة هذا الولي: "...وكان والدي رحمه الله والأستاذ أبو زكريا يقولان عنه أنه آية من آيات الله في العلوم، محدث فقيه حافظ محقق له قدم عالية في معرفة الحديث. قالا حدث عنه من أدركنا من الفضلاء أنه يحفظ سبعة وعشرين ألف حديث بإسناده"[13].

وبشأن قبره يقول: "قبره مشهور متبرك به بجبل فيسة بينه وبين بلد تنس ثلاثة أميال أو نحوها ولا أعلم له عقبا[14].

ثم يترجم للولي أبي عبد الله محمد بن محيو الهواري (الشهير بالأبرش) بين صفحتي 250-293 . وعن سبب برشه يذكر: "أنه كان جميل الصورة فنظر إليه يوما نسوة فتعجبن من شدة جماله ففطن لذلك فقال اللهم غير هذه الصورة التي تفتن الناس فما استتم دعاءه حتى انتفض عليه طائر فرشه بماء فبرش منه"[15]. ويذكر أن قبره بخارج باب البحر من تنس.

ثم يترجم لعدد من الصالحين ولكن بشكل مختصر مقارنة مع الذين سبق وأن ذكرهم منهم: أبو الربيع المديوني حيث يقول بشأنه: "لم أحفظ عنه شيئا من المناقب لأنها أهملت أخباره وجهلت عند هذا الجبل آثاره إلا أنه على الجملة مجمع على فضله"[16]. ثم سيدي فاتح بن يوسف يقول عنه أنه كان عابدا ناسكا فاضلا ذاكرا داعيا مجتهدا، يترجم له ما بين صفحتي 293-299. وسيدي أبو يحي بن (فراغ) كبير الشأن جليل المقدار ويقول عنه نقلا عن أستاذه أبي زكريا وبعض حفدته أنه شريف من شرفاء ساحل تدلس إلا أن حفدته أخفوا ذلك[17].

ثم يأتي على ذكر أبي عبد الله محمد بن يحي، وسيدي يحي بن (فراغ) الشهير بأبهلول، وسيدي سعيد بن عريف. وإن هذه الأسماء لا يعدو عن ذكرها دون أن يقدم عنها معلومات ذات قيمة.

ونلاحظ على هذه التراجم كثرة الاستطرادات، وأن صاحب المخطوط لا يجهد نفسه في التأريخ لوفاته، لكنه شديد الحرص على ذكر مواضع قبورهم. وإن روح التصوف تبدو بارزة على طريقة تأليفه وعلى أفكاره. ولكنه من المتصوف الذين يجمعون بين الفقه والتصوف وهذا ما يتضح من بعض التعاريف التي قدمها بشأن بعض المصطلحات منها:

الخلوة: "واعلم أن للخلوة شروطا وآدابا يجب على المريد إذا عزم على الانفراد تحصيلها فمنها وهو الأصل أن يصحح من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه ثم علوم الفقه ما يؤدي به فرضه وتوابعه، وآداب الأذكار والأدعية حتى يقع ذلك منه على أكمل الوجوه وأحسنها ليكون بناء عبادته على أساس محكم"[18].

العزلة والتصوف: "والعزلة إنما هي في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة، وكذلك التصوف ليس بلباس الصوف وإظهار الازورار المألوف، فالتأثير لتبديل المليئات لا للتنادي عن الأوطان والجهاد وليس الصلاح من حيث اللباس وقطع المسافات".[19]

ويبدو أنه لم يكن راضيا عن واقع عصره، لذلك وجه انتقادات لبعض المسائل ومنها مجالس العلم في وقته: "وهذه المجالس قد انعدمت في هذا الزمان وعوض منها الكذب والبدع ومزامير الشيطان نعوذ بالله من حضورها ونسأله العافية من شرورها"[20].

كما كان شديد الانتقاد لسلوكات بعض مدعي التصوف، وصور بدقة ما كان يفعلونه بقوله: "ويتداولون الأذكار يلوون بها ألسنتهم إتباعا منهم بزعمهم لسنة شيخهم ثم ينزعجون واحدا بعد واحد من غير سبب فيتجنون ويظهرون أمورا غريبة ويركلون الأرض ركلا ويتواجدون تكلفا ويتباكون استنادا لما روي من تشبه بقوم منهم. ويتصرف معهم في ذلك النسوان وتعلوا أصواتهم حتى يسمع البعيد منهم ضجتهم بالتهليل والتكبير والتسبيح. بم يضيفون لهذه المكاره الشطح والقفز والصياح كأنهم صبيان أو مجانين...فإذا بلغ الشيطان منهم أمنيته في ذلك وصاروا له ضحكة وكلوا وانطرحوا وهللوا وتشهدوا قاموا وتناوحوا وتباكوا تكفيرا منهم بزعمهم لما عسى أن يكون قد وقع منهم من المكروه،وما علموا من جهلهم وغلظ طبعهم أنه كله مكروه فينبغي أن ينهوا عنه ويتلطف في علاجهم من هذا الداء الذي خامرهم ويرفق بهم في التعليم ويعرفوا بالطريقة المثلى في ذلك ..."[21]

وذكر ذلك ملخصا في مجموعة من الأبيات:

ليس للتصوف لبس الصوف تلبسه * ولا بكاؤك إن غنى المغنونا

ولا صياح ورقص ولا طرب * ولا تغاش كأن صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر * وتتبع الحق والبرهان والدينا

وأن ترى خاضعا لله مكتئبا * على ذنوبك طول الدهر محزونا[22]

تتنوع مصادر موسى بن عيسى بين المصادر الشفوية والمكتوبة، وهذه الأخيرة عادة ما يوظفها في مواضيع متعلقة بالتصوف في الاستطرادات التي تخللت التراجم أو في مقدمة الكتاب، فيذكر على سبيل المثال:

قال الإمام حافظ أبو عمر بن عبد البر، قال أبو حامد الغزالي، قال سيدي عبد القادر، قال سيدي أحمد الرفاعي، قال الإمام المحقق أبو بكر بن العربي، قال سيدي أبو مدين، قال أحمد بن مالك، وذكر مؤلف عنوانه الدراية، وحكى أبو الفرج الجوزي، وغيرها من المصادر مما يكشف عن سعة إطلاعه وغزارة معلوماته، أما الرواية الشفوية فهي عادة ما ترتبط بالتعريف بالشخصيات التي حاول الترجمة لها "شيوخ الحوز عن أبائهم، حفدة الشيخ".

ومن أهم المصادر المكتوبة التي وظفها في ترجمة الشيخ أبي البيان واضح القصيدة التي نظمها حفيده أبو محمد عبد الله بن يوسف.

كما يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار، مما يكشف عن طبيعة ثقافته.

وجاء في شأن مؤلفه مخاطبا الشخص الذي طلب منه هذا الكتاب: "ولولا أن الحديث المعاد مملول لسقناه هنا بكامله توفية لرغبتك لكن نقطف لك من أزهار ذلك الروض أحسنه ومن أعريض أغراضه أبركه وأيمنه، فإن الفائدة في ذكر مناقب الصالحين تقوي قلوب من قفا أثرهم من الفقراء والمرابطين"[23].

إن هذا الكتاب قد نعده موسوعة في التصوف ومصدرا فريدا في الترجمة لعدد من صلحاء وادي شلف وهو يحمل في جنباته معلومات تاريخية في غاية الأهمية، حول علاقة المتصوفة بالسلاطين والأمراء، والأحوال السياسية والأمنية في منطقة الونشريس والصراعات بين القوى في هذه المنطقة،ومنزلة المتصوفة ودورهم في حماية مجتمعاتهم الضيقة من عسف الأمراء وأهل التغلب.

الهوامش:

1. يعني به يحي بن أبي عمران بن عيسى المازوني الإمام العلامة الفقيه....وألف نوازله المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخرين أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين... توفي كما قاله الونشريسي عام 883(1478م) بتلمسان، ووصفه بالفقيه الفاضل»أنظر أبا القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، 1405هـ/1985م، القسم الأول،ص189.

– توجد نسخة في جزأين لمؤلفه هذا "الدرر المكنونة في نوازله مازونة بالمكتبة الوطنية، الجزائر، تحت رقم: ج1 1335 ،ج2 1336.

–كما توجد نسخة لها في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 521 ق في جزأين ونسخة أخرى بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان ضمن مجموع تحت رقم 555.

– للمزيد من التعرف على هذا الفقيه يمكن العودة إلى: الونشريسي أحمد، **الوفيات**، ص150، وابن القاضي أحمد، **لقط الفرائد من لفاضة حقق الفوائد**،ص267، وهما ضمن كتاب بعنوان **ألف سنة من الوفيات**، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، والرباط، 1396هـ/1976م.

ومحمد بن محمد بن مخلوف، **شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ،ص 365.

2. التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ،ص343، ونفس التعريف ورد في **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج** لنفس المؤلف، دراسة وتحقيق محمد مطيع، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب 1421هـ/2000، الجزء الثاني، ص 243.

3. أبوقاسم الحفناوي، المرجع السابق، القسم الثاني، ص 583.

4. "واضح بن عثمان بن محمد بن عيسى بن فركون المغراوي أبو البيان: الفقيه القاضي الأعدل الصالح، قال الونشريسي في وفياته بعد وبوصفه بما ذكر بلدينا وقريبنا توفي سنة وخمسين وثمانمائة (1452م)".

التنبكتي، **نيل الابتهاج**، المصدر السابق، ص 349، الونشريسي، **الوفيات**، المصدر السابق،ص 145.

ذكره صاحب الحلل السندسية ضمن علماء مغراوة، لكن ذكر أن وفاته سنة 865، أنظر: أباراس محمد بن الناصر المعسكري، **الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية أو الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب**، تحقيق سليمة بنعمر، دار صنين للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ليبيا،2002،ص219. ولا يبدو أن هذه المعلومات متعلقة بصاحب الترجمة لأن هذا الأخير حسب المخطوط توفي أواخر القرن السابع الهجري.

5. المازوني موسى بن عيسى، **كتاب في صلحاء وادي شلف**، الخزانة العامة، الرباط، ك 2343، و3و.

6. المخطوط نفسه، ص319.

7. المخطوط نفسه، نفس الورقة.

8. المخطوط نفسه، ص52.

9. المخطوط نفسه، ص76-86.
10. المخطوط نفسه، ص114.
11. المخطوط نفسه، ص 117.
12. المخطوط نفسه، ص143.
13. المخطوط نفسه، ص210.
14. المخطوط نفسه،ص 249.
15. المخطوط نفسه،ص250.
16. المخطوط نفسه،ص 293.
17. المخطوط نفسه،ص 299.
18. المخطوط نفسه،ص73.
19. المخطوط نفسه،الصفحة نفسها.
20. المخطوط نفسه،ص 125.
21. المخطوط نفسه،ص 179.
22. المخطوط نفسه، ص173.
23. المخطوط نفسه، ص 143.